سلسلة المقالات
المنهجية
(٢٢)

سُنَّةُ اللَّه في الاسْتِدْرَاجِ وبيانُ لوازِمِه وأسبابِهِ

بلَّغه
الدكتور عيد أبو السعود الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده ﷺ أمَّا بعد:

فإنَّ من سُنن اللَّه الكونية في خلقه: «الاستدراج»، وقد ذكرها اللَّه تعالىٰ في قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وفي معنىٰ الاستدراج آيات سيظهر معناها في سياق البحث؛ لبيان المراد وفقه المسألة، وأوَّل ما أبدأ به بيان معنىٰ الاستدراج، وذلك من خلال نقاط خمس وهذه أوَّلها:

● **النقطة الأولى: معنى الاستدراج لغةً وشرعًا:**

قال الفيروزآبادي في: «القاموس المحيط» (١/ ١٨٦، ١٨٧) مادة: «درج»:

«"درج" دروجًا وَدَرَجًا: مَشَيَ، والقوم انقرضوا كاندرجوا، وفلانًا لم يُخَلِّفْ نسلًا أو مضىٰ لسبيله، والناقة جازت السَّنة ولم تُنْتِجْ كأدرجت وَطوَىٰ كدرَّج وأدْرج صعد في المراتب ولزم المحجَّة من الدين أو الكلام، والمدْرك المَسْلك، ورجع أدراجَه أي في الطريق الذي جاء منه، وذهب دمُهُ أدراج الرياح أي هدرًا . . . . ، واستدرجه خَدَعَهُ وأدناه كدرَّجه وأقلقه حتىٰ تركه علىٰ الأرض.

واستدراج اللَّه تعالىٰ العبد: أنه كلَّما جَدَّد خطيئة جدَّد له نِعْمَةً وأنساه الاستغفار، أوْ أنْ يأخذه قليلًا قليلًا ولا يُباغِتَهُ». اهـ.

وقال الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٦٧):

«وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] قيل معناه سنطويهم طيَّ الكتاب عبارة عن إغفالهم نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا

وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقيل سنستدرجهم معناه: نأخذهم درجة درجة، وذلك إِدْناؤهم من الشيْء شيئًا فشيئًا، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها». اهـ.

وقال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ١٨٧، ١٨٨):

«معناه: سنأخُذُهم علىٰ غفلة وهم لا يعرفون، فعُذِّبُوا يوم بدر، وقال سُفيان الثوري: نَسْبغ عليهم النِّعم ونُنْسِيهم الشّكر، وقال الحسن البصري: كما مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالسِّتر عليه؟.

وقال رَوْق: أي كلّما أحدثوا خطيئة جدَّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار، وقال ابن عباس: سنمكر بهم، وقيل هو أن نأخذهم قليلًا قليلًا ولا نباغتهم.

والاستدراج ترك المعاجلة، وأصله النَّقل من حال إلىٰ حال كالتدرّج، ومنه قيل: درجة، وهي منزلة بعد منزلة، واستدرج فلانٌ فلانًا، أي استخرج ما عنده قليلًا، ويقال: درّجه إلىٰ كذا واستدرجه بمعنًىٰ [واحد] أي: أدناه منه علىٰ التدريج فتدرّج هو.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾؛ أي: أمهلهم وأطيل لهم المُدَّة، والملاوة: المدة في الدَّهر، وأمْلَىٰ له أي أطال له، وقيل: أي لا أعاجلهم بالموت، والمعنىٰ واحد، وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾؛ أي: عذابي لقوِيٌّ شديد فلا يفوتني أحدٌ». اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ١٢٨):

«وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإيَّاه مني ومنه، أنا أعلم به كيف استدرجه وأمدّه في غيِّه وأنظر ثُمَّ آخُذْه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أنَّ ذلك من اللَّه كرامة، وهو في نفس الامر مهانة، كما

قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ولهذا قال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾؛ أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدّ لهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾؛ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذَّب رسلي، واجترأ علىٰ معصيتي.

وفي «الصحيحين» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللَّه تعالىٰ ليُمْلي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِتْه**» ثُمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]». اهـ.

قلت: والحديث رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

وزاد ابن كثير في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

قال في: «تفسيره» (٣/ ٣٣٨):

«ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعايش في الدنيا حتىٰ يغترّوا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم علىٰ شيء». اهـ.

قلت: وهذا من أقوىٰ وأشدَّ الاستدراج.

وزاد القرطبي في: «جامعه» عند آية الأعراف (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦):

«وقيل لِذِي النون: ما أقصىٰ ما يُخْدَعُ به العَبْدُ؟ قال: بالألطاف والكرامات؛ لذلك قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نُسبغ عليهم النِّعَم ونُنْسيهم الشكر، وأنشدوا:

أَحْسَنْتَ ظنّك بالأيام إذا حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسَالَمَتْكَ الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يَحْدُثُ الكَدَرُ». اهـ.

● **النقطة الثانية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾** [آل عمران: ١٣]:

وهم أصحاب العقول والفكر السليم: قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢- ٤٥].

قال الشوكاني في تفسيره: «فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدِّراية في علم التفسير» (٢/ ١٦٣، ١٦٤):

«ولقد أرسلنا إلىٰ أمم الكائنة قبلك رسلًا فكذّبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ أي: البُؤس والضرّ، وقيل البأساء: المصائب في الأموال، والضرَّاء المصائب في الأبدان، وبه قال الأكثرون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: يدعون اللَّه بضراعة وهي الذلّ في الدعاء ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾؛ أي: فهلَّا إذْ جاءهم بأسنا تضرَّعوا، لكنَّهم لم يتضرعوا، وهذا عتاب لهم علىٰ ترك الدعاء، في كل الأحوال حتىٰ عند نزول العذاب بهم لشدّة تمرُّدهم علىٰ اللَّه، وغلوّهم، ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنهم تضرَّعوا عند أنْ نزل بهم العذاب، وذلك تضرُّع ضروري لم يصدر عن إخلاص وتوبة من قبل نصوح، فهو غير نافع لصاحبه، والأوَّل أولىٰ؛ كما دلَّ عليه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: صلبت وتحجَّرت وغلظت ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أغواهم بالتصميم علىٰ الفسوق والاستمرار علىٰ المعاصي، قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركوا ما ذُكروا به، أو أعرضوا عمَّا ذُكِّروا به؛ لأنَّ النسيان لو كان علىٰ حقيقته لم يؤاخِذا به؛ إذْ ليس هو من فِعْلِهم، وبه قال ابن عباس وابن جريج، والمعنىٰ: أنهم تركوا الاتَّعاظ بما ذُكّروا به من البأساء والضرَّاء وأعرضوا عن ذلك ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛

أي: لمَّا نسوا ما ذُكّروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ من الخير علىٰ أنواعه فرح وبطر وأشر وأُعجبُوا بذلك، وظنَّوا أنهم إنَّما أُعطوه لكون فسقهم الذي هم عليه حقًّا وصوابًا ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾؛ أي: فجْأة وهم غير مُترقبّينِ لذلك، والبغتة: الأخذ علىٰ غِرَّة من غير تقدمة أمارة، قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ المُبْلسُ: الحَزِنُ الآيس من الخير؛ لشدّة ما نزل به مِنْ سوء الحال، ومن ذلك اشتُق اسم إبليس، أبلس الرجل إذا سكت، والمعنىٰ: فإذا هم محزونون متحيّرون آيسون من الفرح، قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ الدَّابر: الآخر، يُقال: دبر القوم يدبرهم دبرًا: إذا كان آخرهم في المجيء، والمعنىٰ: أنه قطع آخرهم، أي استُؤصلوا جميعًا عن آخرهم، قال قطرب: يعني استؤصلوا وأُهلكوا، قال أمية بن أبي الصلت:

فأُهْلِكُوا بعذابٍ خَصَّ دابرهم فما استطاعوا له صرفًا ولا انْتصرا

ومنه التدبير لأنَّه إحكام عواقب الأمور، قوله: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: علىٰ هلاكهم، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التي من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فإنهم أشدّ عباد اللَّه من كل شديد، اللهم ارحم عبادك المؤمنين مِنْ ظُلْم الظالمين، واقطع دابرهم، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم». اهـ.

قلت: وقال القرطبيّ في «جامعه» (٦/ ٢٦٥):

«قال الحسن البصري: واللَّه ما أحَدٌ من النَّاس بسط اللَّه له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مُكِرَ له فيها، إلَّا كان قد نَقُص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها اللَّه من عبد فلم يظن أنه خيرٌ له فيها، إلَّا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه». اهـ.

- **النقطة الثالثة: الابتلاء أصل من أصول الإسلام:**

وللبلاء علاقة وطيدة مع الاستدراج، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ

ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢- ٤]، وقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧- ٣٣]، وقال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ﴾ [يونس: ٣٠]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقال: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]، وغيرها من الآيات «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» (ص: ١٣٥، ١٣٦) لمحمد

فؤاد عبد الباقي).

فإذا ربطت بين ما كان من النقطة الأولىٰ والثانية ثُمَّ أضفت إليها أمر البلاء علمت العلاقة القوية وتأثيرها علىٰ تبلور البحث وتصور المراد؛ فإنَّ الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره، فَفَقَهْتَ معنىٰ الاستدراج وسُنَنَ اللَّه الكونية في خلقه سبحانه، مع تدبّر هذه الآيات الجليلة في أصناف البلاء وتنوّعه في شتىٰ مجالات الدنيا والدين، وضرورة وأهمية التفكر والنظر في آيات اللَّه، والإلمام بمعرفة مراد اللَّه من كتابه العزيز، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١، ٢]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٨٢):

«قوله تعالىٰ: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤].

﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾؛ أي: لنختبرنّكم، والابتلاء الاختيار، وكان الصيد أحد معايش العرب العاربة وشائعًا عند الجميع منهم مستعملًا جدًّا، فابتلاهم اللَّه فيه مع الإحرام والحرام، كما ابتلىٰ بني إسرائيل في ألَّا يعتدوا في السَّبْت، قال ابن عباس: إنهم المُحْرِمُون، وتعلق بقوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾؛ فإنَّ التكليف الامتناع الذي يتحقق به الابتلاء هو مع الإحرام، وقال ابن العربي: وهذا لا يلزم؛ فإنَّ التكليف يتحقق في المُحِلِّ بما شُرِطَ له من أمور الصيد وما شُرِع له من وصفه في كيفية الاصطياد.

والصحيح أنَّ الخطاب في الآية لجميع النَّاس مُحلُّهم ومُحْرِمهم، لقوله تعالىٰ: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ليكلّفنَّكم، والتكليف كله بلاء وإن تفاضلَ في الكثرة والقلّة، وتباين في الضعف والشدّة». اهـ.

● **النقطة الرابعة: أوَّل من ابْتُلِيَ آدم وحواء:**

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

قال الحافظ ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٢١):

«وأمَّا قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من اللَّه تعالىٰ وامتحان لآدم، وعن ابن عباس: الشجرة التي نَهَىٰ عنها آدم». اهـ.

قلت: فهذا أول بلاء كان لآدم أبي الخلق والنَّاس كلهم.

وقال القرطبيِّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٥٣ وما بعدها):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ أي: لا تقرباها بأكل، لأنَّ الإباحة وقعت، قال ابن العربيّ: سمعت الشاشيِّ في مجلس النّضر بن شُميل يقول: إذا قيل لا تَقْرَب -بِفتح الراء- كان معناه لا تَلَتَبِس بالفعل، وإذا كان -بضم الراء- فإنَّ معناه: لا تَدْنُ منه، وقال ابن عطية: قال بعض الحُذَّاق: إنَّ اللَّه تعالىٰ لمَّا أراد النَّهي عن أكل الشجرة، نهىٰ عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب، قال ابن عطية: وهذا مثال بيِّن في سدِّ الذرائع، وقال بعض أرباب المعاني قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج مِنَ الجَنَّة وأنَّ سكناه فيها لا يدوم؛ لأنَّ المخلَّد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا يُنْهَىٰ، والدليل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فدلَّ علىٰ خروجه منها . . . .

[ثُمَّ قال:]، والنهي إذا كان معلقًا علىٰ فِعلَيْن لا تتحقق المخالفة إلَّا بهما،

لأنَّك إذا قلت: لا تدخلا الدار فدخل أحدهما ما وُجِدتْ المخالفة منهما؛ لأنَّ قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ نهيٌ لهما: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جوابهُ: فلا تكونا من الظالمين -يعني لأنفسهما- حتىٰ يفعلا، فلمَّا أكلت لم يُصبْها شيء؛ لأنَّ النهي عنه ما وُجِدَ كاملًا، وخفي هذا المعنىٰ علىٰ آدم فطمع ونيسي هذا الحكم، وهو معَنَىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]، وقيل نسِيَ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، واللَّه أعلم». اهـ.

قلت: هذا ما كان لأبي النَّاس أجمعين، وهو تنْبيه بالأعلىٰ في المرتبة علىٰ الأدنىٰ وتذكير للخلق أجمعين، وتوجيه للعباد إلىٰ ما ينفع النَّاس وإدلال علىٰ الصواب.

- **النقطة الخامسة: ما كان من أهل السبت وتأثير الاستدراج:**

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢١٨- ٢٢٠):

«أي: واسأل أهل القرية التي كانت بقرب البحر ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: يصيدون الحيتان وقد نُهُوا عنه، يُقال: سَبَتَ اليهود: تركوا العمل في سبتهم، وأسْبَتَ الرجل سكن فلم يتحرَّك، والقوم صاروا في السبت، واليهود دخلوا في السَّبْتِ، وهو اليوم المعروف، وهو من الراحة والقطع، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾؛ أي: شوارع ظاهرة علىٰ الماء كثيرة، وقال الليث: حيتان شُرَّع رافعة رؤوسها، وقيل: معناه أنَّ حيتان البحر كانت ترِد يوم السبت عُنُقًا من البحر فتُزَاحم قرية أيْلة، ألهمها اللَّه تعالىٰ أنها لا تصاد يوم

السبت، لنهيه تعالىٰ اليهود عن صيدها، وقيل: إنها كانت تشرع علىٰ أبوابهم كالكباش البيض رافعة رؤوسها، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ أي: لا يفعلون السبت، ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: حيتانهم [لا تأتيهم في الأيام الأخرىٰ غير السبت إمعانًا في البلاء والاستدراج]، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾؛ أي: نشدد عليهم في العبادة ونختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بفسقهم.

وسُئل الحسن بن الفضل: هل تجد في كتاب اللَّه الحلال لا يأتيك إلَّا قوتًا، والحرام يأتيك جزْفًا جِزْفًا؟ قال: نعم في قصة داود وأيْلة ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ورُوي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام، وأنَّ إبليس أوحىٰ إليهم فقال: إنَّما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقىٰ فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد، ثُمَّ تطرَّق النَّاس حين رأوا مَنْ صنع هذا لا يُبْتلىٰ حتىٰ كَثُرَ صيد الحوت، ومُشِيَ به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده، فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت وجاهرت بالنَّهي واعتزلت، وقيل إنَّ الناهين قالوا لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا: إنَّ للنَّاس لشأنًا، فَعَلَوْا علىٰ الجدار فنظروا، فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة، فجعلت تأتي نسيبها من الإنس فتشُم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم، فتقول برأسها: نعم.

قال قتادة: صار الشُبَّان قردة والشيوخ خنازير، فما نجا إلَّا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم، قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فعلىٰ هذا القول إنَّ بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين، ويكون المعنىٰ في قوله تعالىٰ في هذه الآية: قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم: إذا علمتم أنَّ اللَّه مهلكنا فلم تعظوننا؟

فمسخهم اللَّه قردة، ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: قال الواعظون: إنَّما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون، أسند هذا القول الطبري عن ابن الكلبيِّ، وقال جمهور المفسرين: إنَّ بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق -يعني في هذه القصة- وهو الظاهر من الضمائر في الآية، فرقة عصت وصادت، وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا، وفرقة نهت واعتزلت، وكانوا اثني عشر ألفًا، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تَعْص، وأنَّ هذه الطائفة قالت للناهية: لم تعظون قومًا -تريد العاصية- اللَّه مهلكُهم أو معذّبهم علىٰ غلبة الظن، وما عُهد من فعل اللَّه تعالىٰ حينئذ بالأمم العاصية، فقالت الناهية: موعظتنا معذرةً إلىٰ اللَّه لعلهم يتقون». اهـ.

● **النقطة السادسة: نهاية المطاف:**

(*) **قلت**: هذا ما كان من فقه هذه الآيات، وما كان من أصحاب السبت، وما فُعِلَ بهم من الاستدراج الشديد الذي أهلكهم، وجعلهم عبرة لأولي الأبصار والألباب العقلاء الذين يتدبّرون القرآن، ويدركون المعاني والمفاهيم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ثُمَّ قال تعالىٰ في نهاية سورة (ق): ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

فإنَّما أنزل اللَّه علينا القرآن لفهمه والعمل به بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال ﷻ في نهاية سورة هود: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ

نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦، ١٠٠]، واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل.

لقد أكمل اللَّه لنا الدين، وأتمَّ النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا، وتركنا علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء، لا يزيغ عنها إلَّا هالك، وقد بُيِّنت الأمور، وثبتت الحجة، فالحلال بيّن والحرام بيّن، والحق بين والباطل بين، والسُّنَّة بيّنة والبدعة ظاهرة، ولم يبق إلَّا الاستقامة علىٰ الطريق، واجتناب الشّبه، والكف عن الميل عن سواء الصِّراط، وحسن الفهم، وصحة التصور، وإدراك الأمور الموصِّلة إلىٰ النجاة والخلاص، والنَصب والهمة والجدّ في الأعمال الصالحة، والرجولة في طلب العلم، ونبذ الميوعة والنَّسْوَنَةِ والتخنَّث في اتخاذ القرارات المصيريَّة التي تمكّنك من الثبات علىٰ الجادة الحقّة، وتؤهلك للحفاظ علىٰ ما ينفعك ولا تعجزنَّ، فالأمر أسرع من ذلك، وإنَّ الأجل قريب، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بَلَّغَهُ

ابْنُ الكيّال